أغاثا كريستي

عيّنة من الرواية

(للتصفح والاطّلاع)

مُسَافِر إلى فرَانكفورْت

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

مُسَافِر إلى فرَانكفورْت

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٠

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٧٠ بعنوان
Passenger to Frankfurt
Copyright © Agatha Christie Ltd 1970

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة
٢٠٢٠

مقدمة المؤلفة

إن أول سؤال يوجَّه إلى المؤلف (شخصياً أو بالرسائل) هو: من أين تحصل على أفكارك؟

ويشعر المرء بإغراء كبير يدفعه لأن يجيب السائل إجابة من قَبيل: إنني أتسوّق دائماً من متاجر «هارودز»، أو: أحاول العثور عليها في متاجر الجملة...

أما إذا أعجبك مظهر سائلك فإنك تلين وتذهب إلى أبعد من هذا بقليل فتقول: إذا ما خطرت لك فكرة معينة جذابة وشعرتَ أن باستطاعتك عمل شيء منها فإنك تجيلها في فكرك، ثم تعركها وتعجنها حتى تعطيها شكلها النهائي، ثم تبدأ في كتابتها بالطبع.

والواقع أن هذا العمل ليس بالسهولة والمتعة التي يتخيلها أكثر الناس، فهو يغدو عملاً صعباً، وربما اخترتَ أن تحفظ الفكرة كلها وتخبّئها لكي تستخدمها فيما بعد، بعد سنة أو سنتين مثلاً.

وربما ظهر بعد ذلك سؤال ثان يقول بلهجة تقريرية: أظن أنك تأخذ معظم شخصياتك من الحياة الواقعية؟

وسرعان ما يأتي النفي المستنكِر لذلك الرأي البشع: لا؛ أنا لا آخذها من الحياة الواقعية بل أخترعُها. إنها شخصيات خاصة بي، لا بد أن تكون شخصياتي أنا، تفعل ما أريدها أن تفعله وتكون كما أريدها أن تكون. تصبح حية أمامي، وتمتلك -أحياناً- أفكارها الخاصة، ولكن هذا لا يكون إلا لأنني أنا التي جعلت تلك الشخصيات تصبح حقيقية.

وهكذا فقد أنشأ المؤلفُ الأفكارَ والشخصيات، فتأتي الآن الضرورة الثالثة: خلفية الأحداث.

أول ضرورتين جاءتا من مصادر داخلية، أما هذه الثالثة فلا تأتي إلا من مصادر خارجية؛ لا بد أن تكون هناك... موجودة تنتظر. أنت لا تخترع الخلفية لأنها موجودة أصلاً، إنها حقيقية.

ربما ذهبتَ في رحلة نهرية عبر النيل ذات يوم على سبيل المثال. إنك تذكر تفصيلات تلك الرحلة كلها، وهي -تماماً- الخلفية التي تريدها لهذه القصة المعينة. وربما تناولت وجبة في مقهى في تشيلسي ذات يوم وكانت تجري مشاجرة، وترى فتاة وقد انتزعت قبضةً من شعر فتاة أخرى... إنها بداية رائعة للقصة التي ستكتبها فيما بعد. وقد تسافر في قطار الشرق السريع... أية متعة ستكون لو جعلت هذا القطار موقعاً لحبكة تفكر فيها! وربما تذهب لشرب الشاي مع صديقة، وعندما تصل يغلق أخوها كتاباً كان يقرؤه ويلقيه جانباً وهو يقول:

"لا بأس، لكن لماذا لم يسألوا إيفانز؟"... وهكذا تقرر فوراً أن تضع لروايتك التي ستكتبها قريباً العنوان نفسه: «لماذا لم يسألوا إيفانز؟». إنك لا تعرف حتى الآن مَن سيكون إيفانز هذا، لكنْ لا يهم؛ إيفانز سيأتي في الوقت المناسب إلّا أن العنوان قد حُسِم أمره!

وهكذا فإنك -بمعنى من المعاني- لا تخترع خلفيات كتبك، فهي تقع خارج عقلك؛ إنها موجودة حولك وما عليك إلا أن تمدّ يدك وتختار منها ما تشاء: قطاراً، مستشفى، فندقاً في لندن، شاطئاً على البحر الكاريبي، قرية من قرى الريف، حفلة، مدرسة بنات... إلى آخر ذلك.

غير أن أمراً واحداً فقط ينطبق ويجري على مسألة الخلفيات تلك: إذ ينبغي أن تكون موجودة... إنها أناس حقيقيون وأماكن حقيقية، مسرحٌ محدّد في الزمان والمكان. فإذا كان الحدث في الوقت الحاضر فكيف ستحصل على معلومات كاملة تُضاف إلى ما تشاهده عيناك أو تسمعه أذناك؟

الجواب بسيط جداً. إنه ما تقدمه لك الصحافة كل يوم، تقدمه لك في صحيفتك التي تقرؤها كل صباح في الصفحة الأولى. ما الذي يجري في العالم اليوم؟ ما الذي يقوله الناس أو يفعلونه؟ انظر إلى أي صحيفة في إنكلترا عام ١٩٧٠، انظر إلى الصفحة الأولى كل يوم ولمدة شهر واحد، دوّن ملاحظات، صنّف وفكّر.

كل يوم جريمة قتل: فتاة تُخنَق، عجوز تُقتَل وتجرَّد من مدّخراتها الزهيدة، شبّان وصبية يعتدي بعضهم على بعض، مبان وأكشاك هاتف تحطم أو تخرَّب، تهريب مخدّرات، سرقة واعتداء، أطفال يُخطَفون وجثث أطفال يُعثَر عليها قريباً من منازلهم...

أيمكن أن تكون هذه إنكلترا؟ هل هي هكذا حقاً؟! يشعر المرء أنها لا يمكن أن تكون إنكلترا... أو ليس بعد، ولكن هذا ممكن. ويستيقظ الخوف، خوف مما قد يحدث. وهو ليس خوفاً نابعاً -في جزء كبير منه- ممّا يحدث حقاً، ولكنه نابع مما قد يكمن خلف هذه الأحداث من أسباب، وهي أسباب بعضها معروف وبعضها مجهول رغم أنه محسوس.

وهذا لا يحدث في بلدنا فقط، فثمة أخبار تحتل مساحات أقل في صفحات أخرى من الصحيفة تقدّم أخباراً من أوروبا ومن آسيا ومن الأمريكتين... ومن كل أنحاء العالم: اختطاف طائرات، اختطاف أشخاص، عنف، أعمال شغب، كراهية، فوضى...

هذا كله ينمو ويزداد، وكله يبدو وكأنه يقود إلى عبادة التدمير وإلى المتعة في القسوة والوحشية!

ومع ذلك يعرف المرء -من خلال خبرته الشخصية- مقدار الخير الموجود في عالمنا هذا: المحبة وطيبة القلب والشفقة ومساعدة الجار للجار وأعمال العون التي

يبذلها الأولاد والبنات... إذن لماذا هذا الجو الغريب للأخبار اليومية، للأشياء التي تحدث والتي هي حقائق فعلية؟

عليك إن أردت كتابة قصة في عامنا هذا (١٩٧٠) أن تنسجم مع خلفيتك، فإن كانت الخلفية خيالية فلا بد للقصة من قبول خلفيتها لتكون -هي أيضاً- قصة خيالية خارجة عن المألوف، ينبغي للخلفية ولمسرح الأحداث أن يتضمنا الوقائع الغريبة للحياة اليومية.

هل يمكن للمرء أن يتخيل قضايا خيالية؟ حملة سرية من أجل السلطة مثلاً؟ هل يمكن لرغبة جنونية في التدمير أن تبني عالماً جديداً؟ هل يمكن للمرء أن يذهب خطوة أبعد قليلاً فيقترح إنقاذاً للعالم بأساليب خيالية تبدو مستحيلة؟

لا شيء مستحيل؛ هذا ما تعلمناه من العلم.

* * *

إن هذه القصة خيالية في جوهرها، وهي لا تزعم أنها أكثر من ذلك، لكن معظم الأشياء التي تحدث فيها تحدث فعلاً (أو تُنبئ بإمكانية حدوثها) في عالم اليوم.

إنها ليست قصة مستحيلة... بل هي خيالية فقط.

أغاثا كريستي

الكتاب الأول

رحلة معترَضَة

الفصل الأول
مسافر إلى فرانكفورت

"الرجاء تثبيت أحزمة الأمان".

لم يلقَ النداء استجابة سريعة من ركاب الطائرة المختلفي المشارب، فقد ساد إحساس عام بأن من غير الممكن أن يكونوا قد وصلوا إلى جنيف بعد. تأفّفَ الناعسون وتذمروا وتثاءبوا، أما أولئك الذين غطّوا في نوم عميق فقد وجب على المضيفة المسؤولة أن توقظهم برفق وهي تقول: أحزمة مقاعدكم من فضلكم.

جاء الصوت الجاف من الإذاعة الداخلية للطائرة ليشرح بالألمانية والفرنسية والإنكليزية قائلاً إن الطائرة ستشهد بعد قليل فترة قصيرة من الأجواء المتقلبة. وفتح السير ستافورد ناي فمه واسعاً وتثاءب، ثم استجمع نفسه على مقعده وجلس منتصباً. كان يرى -فيما يرى النائم- حلماً سعيداً يصيد فيه السمك في نهر إنكليزي.

كان السير ستافورد ناي في الخامسة والأربعين من عمره، متوسط الطول ذا وجه حليق ناعم بلون الزيتون، أما ثيابه فكان يحبّ لبس الغريب منها، إذ كان يشعر (وهو ابن العائلة العريقة) بارتياح تام

في الانغماس بمثل تلك النزوات الخاصة بالملابس. وإذا ما أثارت تلك الأزياء بين حين وآخر دهشة بعض زملائه ممّن يرتدون ثياباً أكثر تقليدية فإن ذلك لم يكن سوى مصدر متعة خبيثة له.

كان في مظهره شيء يذكّر بمتأنّقي القرن الثامن عشر. وكان يحب أن يلفت الانتباه إليه، وعندما يسافر كان ولعه الخاص ارتداء عباءة كتلك التي يرتديها رجال العصابات، وقد اشتراها ذات يوم من كورسيكا. كانت عباءة أرجوانية داكنة لها بطانة قرمزية اللون وغطاء رأس يتدلى وراءه بحيث يستطيع تغطية رأسه لتفادي تيارات الهواء.

كان السير ستافورد ناي مخيّباً للآمال في الدوائر الدبلوماسية، فقد تميّزَ في أيام شبابه الأولى بمواهبه الطامحة لعظائم الأمور، ولكنه فشل على نحو غريب في تحقيق ما كان يُعلَّق عليه من آمال. فقد اعتادت أن تنتابه في أكثر اللحظات جديّةً روحُ دعابةٍ شيطانية غريبة، وقد وُجد أنه كان يفضّل دائماً عندما يجِدُّ الجدّ التمتعَ بمكره اللَّعوب بدل الضجر الذي تثيره جدية المشكلات.

كان شخصية مشهورة في الحياة العامة، ولكنه لم يصل إلى منصب رفيع قط. كان الشعور السائد هو أن ستافورد ناي لم يكن مأموناً ولن يكون كذلك أبداً رغم ذكائه الأكيد. وفي هذه الأيام التي تتداخل فيها السياسات والعلاقات الخارجية يصبح الأمان مفضَّلاً على الذكاء، ولا سيما إذا كان الأمر يتعلق بالوصول إلى رتبة سفير. وهكذا وُضع السير ستافورد ناي على الرف، رغم أنه كانت توكل إليه أحياناً بعض المهام التي تتطلب فنّ الكيد والخداع، ولكنها لم تكن مهمات على جانب كبير من الأهمية أو العلنية، وكان الصحفيون يشيرون إليه أحياناً على أنه «حصان الدبلوماسية الأسود».

ولم يكن بوسع أحد أن يعرف أبداً إن كان السير ستافورد ناي نفسه يشعر بخيبة أمل من حياته المهنية، بل لعله هو نفسه لم يعلم. كان فيه شيء من الغرور، ولكنه كان أيضاً يجد لذة كبيرة في إشباع ميوله إلى الأذى والإزعاج.

كان عائداً الآن من مهمة تحقيق في الملايو، وقد وجدها مهمة تفتقر إلى أي إثارة، فهو يرى أن زملاءه قد قرروا سلفاً النتائج التي سيتوصلون إليها. لقد شاهدوا واستمعوا، لكن وجهات نظرهم التي كوّنوها مسبقاً لم تتأثر. وكان السير ستافورد قد ألقى ببعض العوائق والعراقيل أمام عمل زملائه مدفوعاً بمتعة العرقلة وليس بأية قناعات معلنة، وشعر أن عمله ذاك أضفى حياة على المهمة في كل الأحوال، وتمنى لو وجد فرصاً أخرى لوضع المزيد من تلك العراقيل! كان زملاؤه في اللجنة على جانب كبير من الحصافة والموثوقية والبَلادة المملة، حتى السيدة المشهورة ناتانيل إيدج (المرأة الوحيدة في الفريق والمعروفة باستسلامها للهواجس) لم تكن مغفّلة عندما يصل الأمر إلى الحقائق الواضحة، بل كانت ترى وتصغي وتلزم جانب الحذر.

لقد التقى بها قبل ذلك بمناسبة حل مشكلة في إحدى عواصم دول البلقان. وهنا لم يستطع السير ستافورد ناي الإحجام عن الانخراط في بعض الذكريات، فقد لمّحت إحدى المجلات (واسمها «أخبار من الداخل») إلى أن وجود السير ستافورد ناي في تلك العاصمة البلقانية كان وثيق الصلة بمشكلات البلقان وأن مهمته كانت سرية وعلى درجة كبيرة من الحساسية. وأرسل إليه أحد أصدقائه نسخة من تلك المجلة مشيراً إلى الخبر المتعلق به، لكن السير ستافورد لم

يفاجَأ، بل قرأ الخبر وهو يبتسم. وقد كان من دواعي متعته الفائقة التأمل في مقدار مجانبة الصحفيين للحقيقة في هذا الخبر، فقد كان وجوده في صوفيا لسبب وحيد هو اهتمامه البريء بالأزهار البرية النادرة وبناءً على إلحاح من صديقة عجوز اسمها الليدي لوسي كليغورن، لم تكن تعرف الكلل في بحثها عن تلك الأزهار النادرة. وقد كانت تلك السيدة مستعدة دوماً لتسلق منحدر صخري أو القفز بفرح وسط مستنقع جرياً وراء زهرة صغيرة يتناسب حجمها الصغير عكساً مع اسمها اللاتيني الطويل!

كانت مجموعة صغيرة من المتحمسين تتابع هذا البحث في الأزهار على سفوح الجبال ومنحدراتها لأكثر من عشرة أيام تقريباً عندما خطر للسير ستافورد أنه من المؤسف أن لا يكون خبر المجلة ذاك صحيحاً. كان قد شعر بشيء من الملل من الأزهار البرية، ورغم أنه كان يحب لوسي العزيزة إلا أنه يتضايق أحياناً عندما تسبقه في تسلق التلال بسهولة وبأقصى سرعة على الرغم من تجاوزها الستين عاماً.

في الطائرة تكلم ذلك الصوت الجاف مرة أخرى، مُخبراً المسافرين أن الطائرة ستحوّل وجهتها إلى مطار فرانكفورت بسبب الضباب الكثيف في جنيف، ومن هناك ستتابع طيرانها إلى لندن، أما المسافرون المتوجهون إلى جنيف فسوف يُعادون إليها من فرانكفورت بأسرع وقت ممكن.

ولم يكترث السير ستافورد ناي بهذا التغيير، بل توقّع أنه لو كان في لندن ضباب فسوف تحوّل الطائرة وجهتها إلى بريستويك. وكان يرجو أن لا يحدث هذا، فقد سافر إلى بريستويك أكثر من

مرة. وأحسّ أن الرحلات الجوية كانت مملة جداً بالفعل. لو أنه... إنه لا يدري. لو أنه ماذا؟

كان الجو دافئاً في قاعة الترانزيت بمطار فرانكفورت فخلع السير ستافورد ناي عباءته وثناها حول كتفيه، وراح يشرب كأساً من الصودا ويستمع بنصف انتباه إلى النداءات المختلفة من الإذاعة الداخلية للمطار: الرحلة رقم ٤٣٨٧ المتجهة إلى موسكو، الرحلة رقم ٢٣٨١ المتجهة إلى مصر وكلكتا...

رحلات إلى جميع أصقاع الدنيا. يا له من أمر مثير! ولكن كان في قاعات المسافرين في المطارات شيء يجمّد الإثارة، فقد كانت مليئة عن آخرها بالناس، مليئة بأشياء كثيرة معروضة للبيع، مليئة جداً بالمقاعد المتشابهة الألوان، مليئة جداً بالبشر ومليئة بالأطفال الذين يصرخون... وحاول أن يتذكر قائل البيت: «ليتني أحببت الجنس البشري، ليتني أحببت وجهه السخيف»... أهو تشيسترتن؟ لا شك أنه كلام صحيح. ضع أناساً كثيرين معاً ثم انظر كيف يبدون متشابهين جداً بحيث لا يكاد المرء يحتمل ذلك.

وفكر السير ستافورد وهو ينظر في تلك اللحظة: ها هو وجه مثير الآن. يا له من فرق!

نظر باستخفاف إلى فتاتين تجمّلتا لأبعد حد، وحسبهما من إنكلترا. ثم نظر إلى امرأة أخرى تجمّلت أكثر من الفتاتين، وأحسّ أنها ذهبت بعيداً بعض الشيء في اتباعها لآخر صيحات الموضة. ولم يكن ليهتم بالفتيات المتجمّلات اللاتي يتشابهن إلى حد بعيد، بل كان يحبّ للمرأة أن تبدو مختلفة.

ثم جلست شابة بجانبه على الكرسي البلاستيكي المغطى بالجلد الصناعي، وقد لَفَتَ وجهُها انتباهَه على الفور، لا لأنه كان مختلفاً تماماً، بل لأنه بدا وكأنه وجه يعرفه. لقد شاهد هذا الوجه من قبل، ولم يستطع أن يتذكر أين أو متى، لكنه بدا وجهاً مألوفاً لديه بالتأكيد. وقدّر أن عمرها قد يكون خمساً وعشرين سنة أو ستاً وعشرين، ذات أنف دقيق معقوف وشعر أسود كثيف يصل إلى كتفيها. وكانت أمامها مجلة لكنها لم تكن تنظر إليها، في الواقع كانت تنظر إليه بشيء أقرب إلى اللهفة.

وفجأة تكلمت، وكان صوتها جَهْوَرياً عميقاً بعمق صوت الرجل تقريباً وفيه لكنة أجنبية بسيطة جداً. قالت: هل يمكنني الحديث معك؟

تأملها قليلاً قبل الردّ عليها. لا، ليست من النوع الذي يتبادر إلى الذهن... ليست ممّن يبحثن عن تسلية عابرة، بل إنها نوع آخر. قال: لا أرى سبباً يمنعك من الحديث؛ يبدو أن لدينا وقتاً طويلاً نضيعه هنا.

قالت المرأة: ضباب، ضباب في جنيف، وربما ضباب في لندن... ضباب في كل مكان. لا أعرف ماذا أفعل.

قال يطمئنها: آه، لا تقلقي؛ سينزلونك في مكان ما بلا شك. إنهم على درجة عالية من الكفاءة. إلى أين أنت ذاهبة؟

- كنت ذاهبة إلى جنيف.

- حسناً، أظن أنك ستصلين إلى هناك في النهاية.

- عليّ أن أكون هناك **الآن**. إذا استطعت الوصول إلى جنيف فسيكون الأمر على ما يرام، فشخص ما سيستقبلني في جنيف، ويمكنني أن أكون آمنة.

ابتسم قليلاً وهو يسألها: آمنة؟

قالت: إن كلمة «آمنة» مؤلفة من أربعة حروف، لكنها ليست الكلمة التي يهتم بها الناس هذه الأيام. ومع ذلك يمكن أن تعني الكثير، تعني لي الكثير. وسكتت قليلاً ثم قالت: إذا لم أستطع الوصول إلى جنيف وإذا ما اضطررت لمغادرة هذه الطائرة هنا أو الذهاب في هذه الطائرة إلى لندن بلا ترتيبات مسبقة فسوف أُقتل.

نظرت إليه بحدّة وقالت: أظن أنك لا تصدقني.

- أخشى أنني لا أصدقك.

- ما أقوله صحيح تماماً. الناس يُقتلون، إنهم يُقتلون كل يوم.

- ومن الذي يريد قتلك؟

- وهل هذا يهم؟

- لا يهمني أنا.

- يمكنك أن تصدقني إن كنت ترغب في ذلك. إنني أقول الحقيقة وأريد المساعدة، المساعدة للوصول إلى لندن بسلام.

- ولماذا تختارينني أنا لمساعدتك؟

- لأنني أعتقد أنك تعرف شيئاً عن الموت. لقد عرفتَ الموتَ وربما رأيت أحداً يموت.

نظر إليها بحدة ثم قال: وهل من سببٍ آخر؟

- نعم، هذه.

مدّتْ يداً نحيلة زيتونية اللون ومسّدَت ثنايا العباءة الملتفّة على كتفيه وكررت الكلمة: هذه.

اشتد اهتمامه لأول مرة وقال: ماذا تعنين بهذا؟

- إنها غير عادية... فريدة. إنها ليست مما يلبسه أي شخص.

- هذا صحيح، إنها واحدة من نزواتي المظهرية.

- وهي نزوة قد تفيدني.

- ماذا تقصدين؟

- أريد منك شيئاً. قد ترفض طلبي وقد تقبله، لأنني أعتقد أنك رجل مستعد للمجازفة تماماً مثلما أنا امرأة مستعدة للمجازفة.

قال بابتسامة باهتة: سوف أصغي إلى مشروعك.

- أريد أن أرتدي عباءتك، وأريد جواز سفرك، وأريد تذكرة صعودك إلى الطائرة. بعد عشرين دقيقة أو نحو ذلك سيبدأ النداء لرحلة لندن. سأحمل جواز سفرك وسوف أرتدي عباءتك، وهكذا سأسافر إلى لندن وأصل إلى هناك بأمان.

- تقصدين أنك ستعبرين إلى الطائرة على أنك أنا؟ بهذه السهولة يا عزيزتي؟

فتحت حقيبتها وأخرجت منها مرآة مربعة صغيرة وقالت: انظر

هنا. انظر إليّ ثم إلى وجهك.

عندها عرف، عرف ما كان يتردد بغموض في أعماق عقله: أخته باميلا التي توفيت قبل عشرين سنة تقريباً. كان هو وباميلا متشابهَين كثيراً؛ كانت ذات وجه فيه شيء من ملامح الرجولة، وربما كان في وجهه هو في أيام شبابه شيء من الملامح الأنثوية. كان لكليهما أنف مقوس ونفس شكل الحاجبين والابتسامة الجانبية الخفيفة. كانت باميلا طويلة القامة يبلغ طولها ١٧٢ سنتمتراً، أما هو فيبلغ طوله ١٧٨ سنتمتراً.

نظر إلى المرأة التي عرضت عليه المرآة وقال: يوجد تشابه في الوجه بيننا، أليس هذا ما تقصدينه؟ ولكن يا عزيزتي، لا يمكن أن يخدع هذا أيَّ شخص يعرفني أو يعرفك.

– لن يخدعه بالطبع. ألا تفهم؟ لا حاجة لذلك. إنني مسافرة وأنا أرتدي هذا البنطال الفضفاض، وأنت كنت مسافراً وتلفّ حول رأسك قلنسوة عباءتك وتغطي بها وجهك. كل ما عليّ فعله هو أن أقص شعري وأضعه في صحيفة ثم ألقيه في سلة المهملات هنا، ثم أرتدي عباءتك وأشدّ غطاءها على رأسي وأحمل بطاقة صعودك إلى الطائرة والتذكرة وجواز سفرك. وما لم يكن في هذه الطائرة شخص يعرفك جيداً (وأظن أنه لا يوجد من يعرفك وإلا لتكلم معك أصلاً) فإنني أستطيع السفر بأمان متخفّيةً باسمك. أُظهِرُ جواز سفرك عند اللزوم وأبقى مرتديةً العباءة وألُفّ رأسي بغطائها حتى لا يُرى مني سوى أنفي وعينيّ وفمي. وعندما تصل الطائرة إلى وجهتها يمكنني الخروج بأمان لأن أحداً لن يعلم بأنني سافرت على متنها. سأخرج بأمان ثم أختفي بين جموع سكان لندن.

سألها ستافورد وهو يبتسم: وماذا أفعل أنا؟

- يمكنني أن أقترح عليك شيئاً إن كنتَ تملك الجرأة على القيام به.

- اقترحي، أحب دائماً سماع الاقتراحات.

- أنت تنهض من هنا وتذهب بعيداً وتشتري مجلة أو صحيفة أو هدية من محل الهدايا. اترك عباءتك هنا فوق المقعد، وعندما تعود بما اشتريته اجلس في مكان آخر، لنقل في نهاية صف المقاعد الذي يقابلنا. سيكون كأس الصودا هذا معك وفيه ما يجعلك تنام، تنام في زاوية هادئة.

- وماذا سيحدث بعدها؟

- يُفتَرَض أن تكون ضحية لحادثة سرقة؛ سيكون شخصٌ ما قد أضاف إلى شرابك بضع نقاط منوِّمة وستكون محفظتك قد سُرقت منك... شيء من هذا القبيل. ثم تُعرّف نفسك وتدّعي أن جواز سفرك وأشياءك الأخرى قد سُرقت، وسوف تستطيع إثبات شخصيتك بسهولة.

- هل تعرفين من أنا؟ أقصد اسمي؟

- ليس بعد، فأنا لم أرَ جواز سفرك بعد ولا أعرف مَن تكون.

- ومع ذلك تقولين إنني أستطيع إثبات هويتي بسهولة؟

- إنني أجيد الحكم على الناس، أعرف الشخص المهم من غير المهم، وأنت شخص مهم.

- ولماذا أفعل كل هذا؟

- ربما لتنقذ حياة أخت لك في الإنسانية.

- أليست هذه قصة مزوَّقة جداً؟

- آه، نعم؛ ليس من السهل تصديقها. هل تصدّقها؟

نظر إليها متأملاً وقال: هل تعرفين ما تشبهين وأنت تتحدثين هكذا؟ إنك مثل جاسوسة جميلة في رواية مثيرة.

- نعم، ربما، ولكنني لست جميلة.

- كما أنك لست جاسوسة.

- قد أكون كما تقول. لديّ معلومات معينة، معلومات أريد الحفاظ عليها. عليك أن تصدقني في قولي هذا، فهي معلومات قد تكون قيّمة ومهمة لبلدك.

- ألا تَرَين أنك تتحامقين؟

- نعم، هذا صحيح. لو دُوِّن هذا الكلام فسوف يبدو سخيفاً، لكن الكثير من الأشياء السخيفة تكون صحيحة، أليس كذلك؟

نظر إليها ثانية. كانت تشبه باميلا كثيراً وكان صوتها يشبه صوت باميلا رغم لكنته الأجنبية. إن ما اقترحته عليه سخيف وأحمق ومستحيل تماماً، وقد يكون خطيراً... خطيراً عليه. ولسوء الحظ فإن هذا هو ما جذبه على الرغم من تلك الحقيقة؛ أن تكون لديها تلك الجرأة بحيث تقترح عليه مثل هذا الشيء! ما الذي سينتج عن ذلك كله؟ من المؤكد أن اكتشافه سيكون ممتعاً.

سألها: ما الذي سأحصل عليه من ذلك؟ هذا ما أريد معرفته.

نظرت إليه بإمعان ثم قالت: التغيير... والخروج عن رتابة الأحداث اليومية. قد يكون علاجاً لحياة الملل والضجر. ليس لدينا وقت طويل، الأمر يرجع إليك.

- وماذا سيحدث لجواز سفرك؟ هل سيتعيّن علي أن أشتري باروكة شعر إن كانوا يبيعون مثل هذا الشيء هنا؟ هل سيتعين عليّ تقمص شخصية أنثى؟

- لا، ليس المطروح تبادل المواقع بيني وبينك. سوف تتعرض للسرقة والتخدير لكنك ستبقى كما أنت. قرّرْ واحسم أمرك فليس في الوقت متسع؛ الوقت يمر بسرعة، يجب أن أبدأ بتغيير شكلي.

قال: لقد فُزتِ بموافقتي؛ على المرء أن لا يرفض الشيء غير المألوف إذا ما عُرض عليه.

- كنت أرجو أن يكون هذا جوابك، لقد كان الأمر رهاناً من طرفي.

أخرج ستافورد ناي من جيبه جواز سفره ودسّه في جيب عباءته، ثم نهض واقفاً وتثاءب ونظر حوله، ثم نظر إلى ساعته ومشى إلى واجهة متجر حيث عُرضت عدة أشياء للبيع، حتى إنه لم يلتفت إلى الوراء.

اشترى كتاباً وقلّبَ بعض الألعاب المصنوعة من الصوف بشكل حيوانات لتكون هدية مناسبة لطفل، وأخيراً اختار لعبة بشكل الباندا. نظر حوله في القاعة ثم عاد إلى حيث كان جالساً، وكانت العباءة

قد اختفت واختفت معها الفتاة وقد بقي على الطاولة كأس الصودا الممتلئ حتى نصفه. فكّر في نفسه قائلاً: "إن المجازفة تكمن هنا". رفع الكأس وابتعد قليلاً ثم شربه، لم يشربه بسرعة بل كان متأنياً. وكان طعمه على حاله من قبل، لم يتغيّر.

قال السير ستافورد: "إنها مسألة محيّرة، محيّرة". ثم مشى في القاعة وذهب إلى ركن بعيد. كانت تجلس هناك عائلة يعلو لغطها بالضحك والحديث، وجلس بجانبهم وتثاءب ثم ترك رأسه يتكئ إلى الخلف على حافة المقعد. وأُعلن عن رحلةٍ مغادرة إلى طهران فنهض عدد كبير من المسافرين وانضمّوا إلى الصف المنتظم أمام البوابة المعلن عنها، وظلت القاعة مليئة إلى نصفها. فتح كتابه الذي اشتراه، ثم تثاءب ثانية. بدأ الآن يشعر بالنعاس الحقيقي، نعم، كان يشعر بالنعاس كثيراً... وفكّر في مكان مناسب يذهب إليه لينام فيه، مكان يستطيع أن يبقى...

أعلنت شركة خطوك ترانس يوروبيان عن مغادرة طائرتها في الرحلة رقم ٣٠٩ إلى لندن. نهض عدد كبير من المسافرين استجابة للنداء، كما دخل قاعةَ الترانزيت في تلك اللحظة مزيدٌ من المسافرين لينتظروا طائرات أخرى. ثم تبع ذلك إعلانات في الإذاعة الداخلية عن ضباب في جنيف وعن عدم تمكن عدد من الطائرات من الإقلاع إلى هناك. سار رجل نحيل متوسط الطول يرتدي عباءة كحلية اللون ذات بطانة حمراء ظاهرة وقد وضع غطاء الرأس على رأسه الحليق الذي لا يختلف في فوضويته عن رؤوس كثير من شباب هذه الأيام، وأخذ مكانه في الصف استعداداً لدخول الطائرة. وبعد أن أظهر بطاقة الصعود إلى الطائرة عبر البوابة رقم ٩.

تبع ذلك مزيد من النداءات: الطيران السويسري، رحلة إلى زيوريخ، الطيران البريطاني إلى أثينا وقبرص... ثم سُمع نداء من نوع مختلف: يُرجى من الآنسة دافني ثيودوفانوس المسافرة إلى جنيف الحضور إلى مكتب الاستعلامات. لقد تأخرت الطائرة المتجهة إلى جنيف بسبب الضباب، وسيسافر الركاب عن طريق أثينا. الطائرة الآن مستعدة للإقلاع.

ثم تلت ذلك نداءاتٌ أخرى تنادي ركاباً إلى اليابان ومصر وجنوب أفريقيا، وخطوط جوية أخرى تجوب المعمورة. طُلب من السيد سيدني كوك المسافر إلى جنوب أفريقيا سرعة الحضور إلى مكتب الاستعلامات حيث توجد رسالة له، ثم نوديت دافني ثيودوفانوس مرة ثانية. ذلك كان آخر نداء قبل مغادرة الرحلة رقم ٣٠٩.

وفي أحد أركان القاعة كانت فتاة صغيرة تنظر إلى رجل يرتدي بدلة داكنة ويغطّ في نوم عميق ورأسه مستند على المقعد الأحمر وفي يده دمية صوفية لحيوان الباندا. مدّت الفتاة الصغيرة يدها نحو الباندا فقالت أمها: لا تلمسيها يا جوان، الرجل المسكين نائم.

- إلى أين هو ذاهب؟

قالت أمها: ربما يريد السفر إلى أستراليا مثلنا.

- هل لديه ابنة صغيرة مثلي؟

- أظن ذلك.

تنهدت الفتاة الصغيرة ونظرت إلى الباندا ثانية. واصل السير ستافورد ناي نومه؛ كان يحلم بأنه يحاول صيد نمر... حيوان خطير

جداً. كان يقول لمرشد رحلة الصيد الذي كان يرافقه: سمعت دائماً أنه حيوان خطير جداً، لا يمكنك أن تثق بالنمر.

تحول الحلم في تلك اللحظة (كما هي العادة في الأحلام) إلى شيء آخر حيث كان يتناول الشاي مع عمته ماتيلدا ويحاول جاهداً إسماعها؛ لقد باتت صمّاء أكثر من أي وقت مضى! ولم يسمع أياً من النداءات ما عدا النداء الأول للآنسة دافني ثيودوفانوس.

قالت والدة الفتاة الصغيرة: إنني أحتار دائماً كيف يَضيع أحد الركاب. عندما يسافر المرء في الطائرة تسمع عن فقدان مسافر كل مرة تقريباً، شخص لا يستطيعون العثور عليه، شخص لم يسمع النداء أو غير موجود في الطائرة، أو شيء كهذا. إنني أتساءل دائماً مَن يكون هذا الراكب وماذا يفعل ولماذا لا يأتي ويجيب النداء. أظن أن الآنسة هذه (التي لا أدري ما اسمها) ستتخلف عن طائرتها، ماذا سيفعلون معها بعد ذلك؟

لم يستطع أحدٌ الإجابة عن سؤالها، لأن أحداً لم يكن يملك المعلومات الصحيحة.

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرَّفَتك بالرّواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com